من مآسي الفردوس المفقود

للدكتور: زكي المحاسني

(دمشق)

« السيد الكامبياذور » (*)

« السيد يقرب منا نحن العرب ، فاسمه من عندنا، وحياته امتزجت بتاريخنا فى الاندلس ، « هورودريك » روي دياز البيفاري ، الملقب بالسيد الكامبياذور وسماه عرب الاندلس « القمبيطور » و « الكنبطور » . أحاط بأخباره ضباب كان ينكشف حينا فيبدو « السيد » ضاحيا فى المعركة متألقا بالشعر ، وحينا يستتر مثل الخيال .

مررت على أخباره فى مصنفات الاندلس فاذا العرب ينظرون اليه نظرة شذراء مقيتة ، فلقد حملهم هو عليها بما صنع فى أمصارهم ، اذ خلف الدمار والتقتيل . ورآه مؤرخو قومه أعطية مجد وصاعقة حرب فأحاطوه بالتهاويل ونسجوا عليه التمجيد .

يبدأ ظهوره فى اسبانيا أيام بني هود ، وكانوا أصحاب حاضرتهم سرقسطة « Saragosse »كان شابا مغوارا تحدر من دماء اسبانية وتمرس بالحرب والقتال، قربه بنو هود اليهم لينضم الى مواكبهم فى الحرب ، وكانوا يحاربون به جيرانهم العرب فى جلاد ذلك العهد من ملوك الطوائف فى الاندلس ، حين ضعف سلطان المسلمين ، وهب كل متسلط فيهم ينصب نفسه أميرا ولو فى رقعته الصغيرة . ويكون مملكة وجيشا فى بلد أو بلدين، معتصما بالحصون . وقد دب التخالف والنزاع بين هؤلاء الامراء ، فكانوا فى عدوان مستديم يثب فيهم مدع على عرض أو يقتل او ينبذ او يشرد . وتاريخهم فى ذلك التنابذ والخلاف صفحات سود لم يشهد الزمن لها مثيلا فى سير الامم . فان الاسبان كانوا يتربصون بهم المتالف. وضعفاؤهم يستعينون بملوك الاسبان . وكان هؤلاء يفرطون فى النكايات بين العرب ليخلو لهم وجه الظفر ، وليستردوا منهم بلادهم التي احتلوها منذ اجتاز اليهم الفاتحان العربيان طارق بن زياد وموسى بن نصير ، وفى غمرات ذلك التخالف والتعادي بين ملوك الطوائف قام « السيد الكنبيدور » بلعبته الكبرى ، فاذا هو يصبح فى

(*) شرح ليفي بروفنسال معنى كلمة (Campeador)فى اللغة الاسبانية القديمة وهي اللغة الرومانسكية اللاتينية (Champion) ومعناها فى العربية المعروفة بالاندلس يومئذ هو (صاحب الفحص) Dominus Campi وقد اعطى بروفنسال كلمة الفحص معناها القديم اذ كانت تدل على الحقول والمروج ، فيكون معناها الاصيل (سيد المروج) وقد وجدت معنى الفحص عند الفيروز آبادي — وهو يعني — بالاسماء خاصة — (الفحص كل موضع للسكن ومواضع فى الغرب — يريد الاندلس — وهي فحص طليطلة واشبيلية . اما المعاجم الفرنجية فأكثرها على ان معنى الكنبيدور ، البطل وقد رسم اسمه لسان الدين ابن الخطيب الكنبطور ورسمه المقرى القنبيطور . وكلمة السيد « علم اندلسي اضافى لا يزال معروفا الى اليوم فى شمال افريقيا وهو (سيدي) وبالاسبانية Mio Cid ويلفظ رودريك بالاسبانية « رودريكث » . Rodriguez

النصف الثاني للقرن الهجري احد ابطال الحـــروب الاسلامية الاسبانية ، فيشكل جيشا من الاسبان يأتمـر بأمره ، وله اتباع ومندوبون ودار قيادة فى سرقسطة لحماية مليكها من غوائل الجيران وكان صاحب سرقسطة فى اواخر القرن الخامس الهجري « يوسف بن أحمد بن هود » (1) ومتن صلاته مع الفونسو السادس ملـك قشتالة وجعل يعاهده ويهاديه وكان « السيد الكنبيدور » أحد رجالات جيشه ، فأهداه الى بني هود يذود عنهم ، وكانت سرقسطة التي خدم « السيد » ملوكها حاضرة كبرى للعرب فى الشمال تزخر هي وبلنسية (2) بهـم ، قامت فيها حضارة عربية أخذت تراثها عن الشرق من دارات أمية ومرابع بغداد ، واكتست أنواف الحضارة الاسبانية . لكن بني هود الذين سكنوا الى الفونـس السادس والى «رودريك» (3) لم يطل بهم هذا السكون، فلقد كانت أطماع العاهل الاسباني بعيدة فى استـرداد ارضه ، فكان أن تنكر « السيد » لبني هود وطمع بمن جاورهم فتخطى الى بلنسية التي كانت تنعم بالهـدوء وترمي بأعينها الخائفة مثل طير يرصده الصياد .

وكانت الاندلس منذ استهلالة القرن الخامـس للهجرة قد احست بميدانها واوشك زلزالها السياسي أن يظلها زمنه ، وكان انحلالها مثل خدر عرا الاعصاب ثم دب فى الاطراف ، حتى كانت الفزعة الكبرى التي فزع بها الاندلسيون الى ملوك الشمال الافريقي مستنجدين، وارسلوا القصائد النواحة المرنة والوفود الداعيـة المحزونة بابتهالاتها حتى استجاب « يوسف بن تاشفين » ملك مراكش ، لا استجابة المغيث الحادب وانما عون الطامع المتربص (كذا) . وقد تولى طلب الغياث باسم ملوك الطوائف « المعتمد بن عباد » وخاضا الحـرب متكاتفين فدحرا الجيوش الاسبانية التي كان يقودهـا ثلاثة ملوك فيهم الفونسو السادس ملك آراغون ، واتيح للعرب يومئذ فى الاندلس بتلك الهبة من كبواتهم أن يؤخروا مصيرهم الدامي اربعة قرون . ثم انقلب ابن تاشفين على المعتمد واستولى على ما فضل من يد الاسبان فى دارات الاندلس الرميمة وفى تلك البارحة من نوازل الزمن هب « السيد الكنبيدور » فغزا بلنسية شر غزوة .

لقد حاصرها عشرين شهرا ، ثم دخلها صلحا ففر منها القادر بالله بن ذي النون وكان فيها لاجئا وكـان يحميها قاضيها « أبو المطرف الجحاف » بعد أن أقـره عليها ابن تاشفين ولم يكن « السيد » طامعا فى حيـازة بلنسية ليكون أميرها ، فقد كان بطوقه ذلك ، وانمـا طمع بالكنز الثمين الذي تركه فيها القادر بالله عنـد القاضي ابن الجحاف — كما يروي المؤرخون الاسبـان والفرنسيون اذ يقول قائلهم : ان القادر بالله « اللاجىء » الى بلنسية كان يملك من الالطاف والتحف ما يسـاوي كنزا من الكنوز . وهو تراث جواهر وعقود كانت لهارون الرشيد وهبها لزوجته الفضلى زبيـدة . ولما حدثـت الحرب بين ابنيه بعده الامين والمأمون وقتل الامين وفى حوزته تلك الجواهر من صوب أمه ، وقعت فى أيـدي النهاب ، وصار أمرها الى تجار حملوها الى المغرب ، حتى صارت الى الخليفة الاموي « عبد الرحمن الثاني » ملك قرطبة (4) وكان يجد هؤلاء الملوك فى الاحتـواء عليها — كما ارى من خلال تحليلي النفسي — شعورا غريبا فيه كثير من الفرحة والشماتة . فقد عاشوا فى المغرب يتلهفون على المشرق منذ اطاح بهم اهلوه وراء البحار ونجا منهم الامويون الذين اقاموا على الشواطىء الغربية مملكة للعرب فى الاندلس وكان بين تلك الجواهر عقد من الفيروز المندور كانت تلبسه السيدة زبيـدة وتتيه به بين نساء الخليفة ببغداد .

فلما اشتد الحصار على بلنسية فر منها القـادر بالله يحيى حفيد المأمون بن ذي النون (5) مستخفيـا بلباس امراة ، فلحق به من عرفه فقتله بأمر ابن الجحاف وخلا الجو لقاضي بلنسية ابن الجحاف — كما يقول فيكتور بيكيه — فأخفى الكنز الذي كان فى حوزته . وحين فك « السيد » الحصار عن بلنسية ودخلها مصالحا ، اتخذ سبيل الخداع لدى القاضي ، وترصد غرة منـه للوثوب عليه . وكان « السيد » أقدر من أن يحاط بـه ، فملك زمام الحكم فى بلنسية ، واحضر القاضي الـى مجلس العدول والشهادة واحضر وجوه الاسبان مـن أعوانه ، وطالب القاضي بكنز القادر بالله . فأنكره . فاشهد عليه « السيد » أنه ان وجده ليحرقنه بالنار ، فرضى القاضي ابن الجحاف بهذا الشرط الوبيل . ويذكر

---

1) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقري ،طبعة السعادة بمصر سنة 1949 ج 6 ص 198 .
2) Valence
3) سمى عرب الاندلس الفونس « اذ فونش » ورودريك « لذريق » .
4) هذه الرواية الخاصة بكنز زبيدة تظهر جلية عند (فيكتور بيكيه) فى كتابه (اسبانيا العرب) « L'Espagne des Maures » طبع الناشر « بوكار » بباريس سنة 1946 ص 134 .
5) يسميه لسان الدين بن الخطيب (ذنون) ويسميه ابن بسام (ذا النون) .

مؤرخو العرب واخصهم لسان الدين بن الخطيب (6) ان القاضي احتوى مال القادر بالله . لكن فكتور بيكيه يدين ابن الجحاف باخفائه ، وبعد حين سعى الى « السيد » « الكنبيدور » كما يقول هذا المؤرخ ، احد عبيد القاضي فدله على مكان الجواهر ، فاستخرجها « السيد » وقدم القاضي لمشهد الانتقام .

ودنا يوم القاضي ابي المطرف بن الجحاف فشهدت بلنسية يوما لا ينساه الدهر ، فقد حفر اعوان « الكنبيدور » حفرة في ساحة عامة انزلوا فيها القاضي الى نصفه ، ورصوا عليه التراب ، وحلقوه من حوله بالحطب الجزل والقش الهشيم .

وأمر به « السيد » فأضرمت عليه النار ، وجعلت تلفحه ، فكان من القاضي ثبات الرسل والصالحين كان يصرخ (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم جعل القاضي الشهيد — كما يروي لسان الدين ابن الخطيب والمقري — (7) يجذب العيدان والدفوف ليقربها الى جسمه بيديه الكليلتين ليسارع في احراق نفسه تخلصا من العذاب . ولما ذاب جسمه ، وصعدت روحه الى بارئها تشكو ظلم الانسان للانسان ، هب اهل بلنسية مستصرخين لهذا الهول . ثم ان « السيد » هم باحراق اولاد القاضي الصغار فركض اليه المسلمون والنصارى معا يعطفون قلبه عليهم حتى تركهم . ثم قدم العلماء والاعيان فأحرقهم « السيد » جميعا وأخذ سائر اهل بلنسية بالعذاب . وكان ممن أحرقوا يومذاك الشاعر ابو جعفر البتي .

يقول ابن بسام في الذخيرة ان اهل بلنسية كانوا يومئذ في غشاوة من الموت . ويصفهم لسان الدين بأن صراخهم كان يتجاوب امام المحنة . وقد حدد فيكتور بيكيه هذه المحنة بيوم 25 يونيو (حزيران 1094 للميلاد) .

كذلك عاش « السيد الكنبيدور » عيشة محارب سالب للعرب ومناصر لهم ، ثم خاذل لعهدهم وشاقه أن يعيد في تاريخ الطغاة سيرة (نيرون) محرق روما .

وصار به عنته الى أن استقل ببلنسية وضرب باسمه عملتها فلم يك تابعا لحكومة الاسبان ولا مظاهرا للمسلمين .

ولم يجد العرب بعد هذه النكبة الاندلسية الا بكاء شعرائهم عليهم ، فكانت المراثي عزاءهم ومنها قول ابن خفاجة مخاطبا بلنسية :

عاثت بساحتك الظبا يا دار
ومحا محاسنك البلى والنار
فاذا تردد في جنانك ناظر
طال اعتبار فيك واستعبار

لقد كانت حياة « السيد » ملبوكة بالمعارك ، وكان شعاره قوله : « رودريك يخسر اسبانيا . ورودريك يستردها » ولم يهنأ « السيد » باستيلائه على بلنسية طويلا ، فقد انهكه المرض وباتت نهايته قريبة . لقد ارسى اواخر حياته جيشا لحرب المرابطين فهزم وتشتت شمله وانكسر باجمعه فاحدثت له هذه النازلة قهرا جسيما ، فمات سنة 1099 للميلاد الموافقة لعام 492 للهجرة (8) .

وحاولت زوجته (شيمين) قريبة الفونس السادس ان تحكم بلنسية ، لكنها اخفقت قبل انقضاء عامين على موت زوجها « السيد » فتركت بلنسية وارادت ان تحمل معها جثة « السيد » ثم بدا لها أن تحرقها ، وخرجت من بلنسية لا تلوي على شيء ، يعينها ملك اسبانيا ، وعيناها تفيضان بالحسرات عند نهر الوادي الكبير .

* * *

ان اخبار « السيد » الكنبيدور » قد استقيت اول امرها من التاريخ اللاتيني قبل عام 1233 من كتابات (Des Gesta Roderici Campidorti)
وراحت حياة « السيد » وقصته خبرا مشاعا في اغاني الشعب الاسباني المسماة Romancero وانسكبت خلال السنين المتعاقبة ، في روح ملحمة شعبية سميت « قصيدة السيد » (Cantate del Cid) وقد وضع فيها « رامون مينانديربيدال » كتابا منفردا درس فيه

---

6) و (7) « اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام » نشر بروفنسال الذي اعطاه اسم تاريخ اسبانيا الاسلامي ، طبع دار المكشوف ببيروت سنة 1956 ص 182 ، 203 . ونفح الطيب الطبعة السابقة ص 199 . ولم يفصل القول في اخذ بلنسية واهلاكها « عبد الملك بن سعيد الاندلسي في كتابه (المغرب في حلى المغرب) وقد نشر مخطوطه القسم الخاص بالاندلس وحققه صديقنا الدكتور شوقي ضيف استاذ الادب العربي بجامعة القاهرة طبع دار المعارف بمصر سنة 1953 ج 2 ص 300 .

8) كان مولده عام 1030 للميلاد .

تاريخها الشعبي وألف بين ابياتها . وقد رويت في ثلاثة اناشيد ، كل منها يسمى Cantor . وقد نظر الدكتور بيدال ما في هذه الاناشيد من عناصر روح « السيد » وشواهد التاريخ ، وذكر الترجمات الحرفية لها من اللفظ الاسباني القديم الى اللغة المعاصرة ، وتقرى ما فيها من أسباب الغناء والرقص الشعبي والحماسي وكيف تلدت في الادب الفرنسي وما احاط باناشيدها من الابهام وما لها من القيمة في الفن والتاريخ (9) .

لقد زوق (رامون بيدال) هذه القصيدة الشعبية ونسج عليها أدبا رفيعا عاليا رفعها الى مصاف الملاحم الاسطورية . فهي اليوم ترداد كل لسان مثقف باسبانيا، تبعث في النفوس ذكرى حروب « السيد » العتيقة ومغامراته في الانتقام والغرام . وكانت هذه الملحمة لا تخلو ، كما يقول عميد الادب الاسباني نفسه من مقاطع ظهر فيها المسلمون أعداء لابد من قتالهم (10) .

لقد أوحت حوادث الحب في هذه الاغنية الشعبية التي كانت ملحمة الاسبان مسرحيتين شعريتين وضع أولاهما الشاعر الاسباني « غيوم دوكاسترو » (Guilhelm de Castro) سنة 1618 فمهد السبيل بعمله الادبي للشاعر « كورنيي » العظيم 1636 الذي أعطى ادب أمته اغلى منحة مسرحية في الشعر الكلاسيكي . وكان القدر سخره لتخليد « السيد » بمسرحيته الفائقة . وقد احتفظ كورنيي بالطابع القديم لسيرة « السيد » ولزم الاسماء التي وردت فيملحمته الاسبانية وفي مسرحية دو كاسترو ، لكنه ادخل على الحوادث اسهابا وتنويعا ومفاجآت اقتضاها الفن المسرحي الكلاسيكي ، وقد ادار حوادث مسرحيته على البطلين « رودريك » الذي هو « السيد الكنبيدور » و « شيمين Chimène » محبوبته . وقد أساء والد شيمين وهو « دون غوميس » الى والد السيد وهو « دون دييغ » اذ صفعه على وجهه وكانا عظيمين اقطاعيين . فلم يستطع الشيخ دون دييغ لوهن جسمه أن يرد الصفعة ، فندب ابنه « السيد » لينتقم له من ضاربه « الكونت » فتقدم رودريك يحدوه الشرف الى مبارزة دون غوميس والد محبوبته ، فقتله .

وهنا يهب أعصار الرواية ، فتنقلب « شيمين » على «السيد» وتشكوه الى الملك ليقتله بقتل ابيها منكرة حبها « للسيد » وكانت تراه قبل فعلته الآثمة ، منية الحياة وأمل الروح . ولم يرهب رودريك فقد تقدم اليها بسيفه وهو يقطر بدم ابيها طالبا ان تأخذ هي بيدها الثأر بقتله ، معلنا انه قتل اباها ليمسح عن مجد ابيه تلك الصفعة المهينة ، وليكون في نظرها جديرا بالمحبة المنيعة .

وتتحاور على مسرحية « السيد » لكورنيي خمسة فصول عنيفة . من ارق ما جاء فيها هذه النجوى المحزنة من حوار بين « السيد » وشيمين .

— لم خلف لنا آباؤنا آلاما ودموعا ؟ .
— من كان يتصور ما نزل بنا ، يا رودريك ؟ .
— من يمر بخاطره مصابنا ، يا شيمين ؟

ولا يجد الصفاء سبيلا الى القلبين المتحابين ، فيبرز الى المسرح منافس جديد هو « دون سانشو »

---

9) La Epopa del Cid طبعة « كالب » بمدريد سنة 1951 ص 99 .

10) افتتحت مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد عددها الاول سنة 1953 بمقال ضاف عن (اسبانيا حلقة اتصال بين المسيحية والاسلام)كتبه لها خاصة كتحية اسبانية للدراسات المصرية رامون بيدال « اظهر فيه تأثير الشعر العربي على الشعر الاسباني وورد فيه قوله الجميل : (لا تعجب ان يؤثر الشعر العربي في شعر الاسبانبل اعجب أن لا يكون قد أثر) ص 19 .

وفيه كانت بين الدكتور رامون مينانديز بيدال وبيني مواسلات « منذ أكثر من عشر سنين وقد كتب مقالا » عني كما كتبت عنه وجاء في كتبه كلمة (عصر السيد) مكررة ومعادة فاقترحت عليه لما للسيد من مآثم — ان يسمي عصره بعصر المعتمد بن عباد » فقبل ذلك ووعد بابدال تلك التسمية في طبعات كتبه الآتية — وله من الكتب ما أربى على المائة .

وفي عام 1960 بلغ من العمر الخامسة والتسعين فاحتفت بذكرى هذه السنين الغالية اسبانيا بأجمعها وامريكا اللاتينية وسفارة الجمهورية العربية السورية بمدريد والمركز الثقافي العربي بمدريد وأثناء المأدبة التي اقامتها السفارة السورية للرئيس العظيم الدكتور رامون مينانديز بيدال لهذه الذكرى وقف محييا وأخرج من جيبه قصيدتي التي حييته بها وقد نشرت بمجلة الاديب البيروتية آنئذ وطلب الى السفير الاديب أن يتلوها بالعربية أمام الحضور وقد كتب لي السيد السفير أن شعورا شاع في نفسه ملأها اعتزازا حين عرف أن أحد ابناء قومه وهو المحاسني صديق لهذا الاديب العظيم .

خاطبا لشيمين . فيتصدى له رودريك ، يدفعه عن حبيبته بالمبارزة ، فيحكم الملك الاسباني بين الرجلين ان من قتل الآخر فله العروس شيمين .

ثم لا تلبث شيمين ان ترى بعد المبارزة ، وهي والهة مراعة ، دون سانشو ماثلا معافى . فتكاد تصرع وتهجم عليه ، ضاربة على صدره بيديها ، لاعنة ، لانه قتل حبيبها الاوحد . وفى ثورة قلبها المفجوع تعلن انها تحب « السيد » على الرغم مما أثمت يداه . واذا بالسيد رودريك يبرز لها من وراء سارية وهو حي سليم .

لكن دموع شيمين لا تجف على أبيها فيمهلها « فيرناندو » ملك كاستيليا (11) سنة قبل ان تزف الى « السيد » حتى يتاح لدموعها الغالية ان تجف ..

وقد صور النقاد الغربيون مسرحية كورنيي (انها نشيد الرحيل الى عهد عظيم حافل ببطولات الادب والتاريخ (12) وكانت فجر العهد التحليلي لنوازع النفوس فى الشعر والنثر والقصة والروايات المسرحية حيث تصطرع المحبة والبغضاء ويتقاتل الغرام مع المطامع ، ويسود الشرف والاباء والواجب على كل شيء .

ودخلت فى تعابير الادب العالمي عبارات من هذه المسرحية التي كفلت لشاعرها الخلود فارتقى كلامها فى بعض روائعه الى درجة القول المأثور والحكم البالغة . ومن اجمله قول « السيد رودريك وهو يبارز والد حبيبته دون غوميس :

— انني فتى حقا ، ولكن النفوس الاصيلة ، لا تنتظر من اقدارها عدد السنين ..

ولقد كنت افرغ من موضوع « السيد الكامبياذور» وقبالة تصوري ابو الطيب المتنبي شاعرنا الاعظم الخالد البطل الذي كان يقول قبل « السيد » :

فما الحداثة عن حلم بمانعة
قد يوجد الحلم فى الشبان والشيب

---

11) Castille وسماها العرب قشتالة .

12) طبعة هاشيت بباريس سنة 1935 ص 192 (Corneille, Le Cid) وما بعدها فى آراء النقاد بمسرحية « السيد » لكورني .